الخط العربى

ونحن نواجه قضية علمية لا بأس من إسقاط الروايات التى عجز أصحابها عن مواجهة المشكلة ، ولم يصبروا على محنة البحث ، فلاذوا بالأسطورة يجدون فى رحابها التفسير والتعليل والرضا والراحة .

فالحروف العربية ، عند هؤلاء ، أُنزلت على آدم عليه السلام ، كتبها فى طين وطبخه ، بين خطوط وكتب كثيرة ، قبل موته بثلثمائة سنة ، فلما أظلّ الغرقُ الأرضَ أصاب كل قوم كتابهم . وقيل إن أول من وضعها أخنوخ ، وهو إدريس عليه السلام ، وقيل : « أول من كتب بالعربية إسماعيل » ، وإن تهيسا ونصرا وتيما ودومة أبناءه وضعوا كتابًا واحدًا ، وجعلوه سطراً واحداً ، موصول الحروف كلها غير متفرق ، ثم فرَّقه نبْت وهَمَيْسع وقيذار ، وفرّقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر .

أما الشيخ **شمس الدين بن الأكفانى** فكان ، فى كتابه « إرشاد القاصد » أكثر التصاقا بالأرض ، وتحرّيا للواقع ، وإيمانًا بالإنسان ، فهو الذى صنع الخط ، « وبه ظهرت خاصة النوع الإنسانى من القوّة إلى الفعل ، وامتاز به عن سائر الحيوان ، وضبْط الأموال ، وترتيب الأحوال . وحفظ العلوم فى الأدوار ، واستمرارها على الأطوار ، وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان ، وحمل السرّ من مكان إلى مكان » .

وكان **ابن خلدون** (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م) أول عالم ، عربى أو غير عربى ، ربط بين الحضارة وابتداع الخط ، بين إجادته وتقدمها ، ثم تتبع مداه داخل الجزيرة العربية : « إنما يكون – الخط – بالتعليم ، وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغى فى الكمالات والطلب تكون جودة الخط فى المدينة ، إذ هو من جملة الصنائع ، وقد قدَّمنا أن هذا شأنها ، وأنها تابعة للعمران ، ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرءون ، ومَن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرًا ، وقراءته غير نافذة ، ونجد تعليم الخط فى الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقًا ، لاستحكاء الصنعة فيها ، كما يحكى لنا عن **مصر** لهذا

العهد ، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط ، يلقون على المتعلم قوانين وأحكامًا فى وضع كل حرف ، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه ، فتعتضد لديه رتبة العلم والحسن فى التعليم ، وتأتى ملكته على أتم الوجوه ، وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها ، بكثرة العمران ، وانفساح الأعمال » .

« وقد كان الخط العربى بالغًا مبالغه ، من الإحكام والإتقان والجودة فى دولة التبابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميرى ، وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة المنذر ، نسباء التبابعة فى العصبية ، والمجددين لملك العرب بأرض العراق ، ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ، ومن الحيرة لقنته أهل الطائف وقريش فيما ذكر » . وصمت ابن خلدون ، احترامًا لشرف الكلمة ، عندما غُمَّتْ عليه نشأته ، فلم يشر إلى الخطوات الأولى التى سبقت إتقانه وجودته عند أولئك وهؤلاء .

ولابن عباس رواية ، من بين روايات كثيرة تنسب إليه ، مؤداها : « أن أوّل مَن وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بوْلان ، وبولان قبيلة من طيّئ ، نزلوا مدينة الأنبار[1] ، وهم مُرامر بن مُرّة ، وأسلم بن سِدْرة ، وعامر بن جدْرَة ، اجتمعوا فوضعوا حروفًا مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها على هجاء السريانية ، فأمّا مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام ، ثم نقل هذا العلم إلى مكة ، وتعلمه من تعلمه ، وكثر فى الناس وتداولوه » . وهى رواية الصناعة فيها واضحة ، والسجع الذى فى « مُرّة وسدْرة وجدْرَة » يوحى بأنها شخصيات لا وجود لها إلا فى مخيلة صانعها ، ويصعب على العقل أن يتصور ثلاثة من الغرباء . التقوا عفوًا أو قصدًا ، يمكن أن يبتدعوا ، ببساطة وفى زمن قصير ، أبجدية كاملة وراقية ، لكنّ الرواية تضم إشارتين لهما أهمية بالغة ، أولاهما أن الخط العربى ، فى بعض مراحله ، أفاد من الرسم السريانى ، وأخراهما أن الأنبار كانت من بين موطن تعليم الخط العربى وإذاعته فى بقيّة أنحاء الجزيرة العربية .

وتأتى روايات أخرى تفصّل ما أجمله ابن عباس فى هذه الرواية ، فقد تعلم بشر

---

(١) مدينة قديمة فى العراق ، على الشاطئ الأيسر للفرات فى الشمال الشرقى من العراق فتحها خالد ابن الوليد عام ٦٣٤ م .

ابن عبد الملك الكندى الخط فى الأنبار ، ثم خرج إلى مكة فى بعض شأنه ، وهناك أصهر إلى بنى أمّية ، فتزوّج الصهباء بنت حرب بن أمية ، وعلّم أبطها وأخاها سفيان بن حرب الخط ، وتعلّمه معاوية من عمه سفيان ، وتعلمه معه عمر بن الخطاب ، ثم شاع الخط فى سائر قريش .

وثمة روايات أخرى تزيد الأمر تحديدًا ، فتجعل انتقال الخط من الأنبار إلى الحيرة ، ومن الحيرة إلى داخل الجزيرة ، ودور الحيرة فى الأدب العربى والحياة العقلية العربية ، واضح ومعروف ، أجمله ابن رُسْته فى كتابه « الأعلاق النفيسة » : « إن أهل الحيرة علّموا قريشًا الزندقة فى الجاهلية ، والكتابة فى صدر الإسلام » .

من الواضح إذن أن الخط العربى جاء إلى الجزيرة العربية من خارجها ، من أطارفها ذات الحضارة المتقدمة ، والمتفاعلة مع ما جاورها من حضارات أكثر تقدّمًا ، ولم يتفق المؤرخون العرب على المكان الذى كان المصدر الأول ، ولا على أول ناقل له وهو أمر طبيعى ، فالأقرب إلى المنطق ، فى بيئة كالتى ، رغم صحاريها ، محور التقاء عدد من الحضارات ، ومحطًّا للمسافرين من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، وتحترف التجارة أو الحراسة أو الوساطة بين كل هؤلاء ، أن تأخذ عنهم جميعًا ، وأن تقلدهم فيما يسبقونها ، وأن يتم ذلك على أيد كثيرة ، تمثلته على آماد طويلة ، فكان لهم أخيرًا رسمهم العربى المستقل .

تلك وجهة نظر العرب القدامى ؛ أما البحث الحديث فسلك بالأمر وجهة أخرى . حاول أن يتتبع نشأة الأبجديات فيما حول الجزيرة العربية نفسها ، وأن يستنطق ما عثر عليه من نقوش فى أطارفها ، ورغم النتائج العلمية التى توصل إليها ، فإن الكلمة الفاصلة لا تزال فى انتظار المزيد من الحقائق ، لأن كنوز قلب الجزيرة العربية المطمورة من الشواهد والمخلفات والآثار ، إذا ما أميط اللثام عنها ، يمكن أن تسدّ الفجوات القائمة فى النظريات الحديثة ، وان تحوّل كثيرًا من الظنون والشبهات إلى يقين .

كانت شبه جزيرة سيناء الملاصقة لموطن الأنباط[1] مهد أقدم نقوش بجدية عُثِرَ

---

(١) فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد جاء الأنباط ، كقبائل بدوية ، من الموضع الذى يعرف باسم

عليها حتى الآن . وهذه النقوش كُشفتْ حديثًا عند سرابيط الخادم ، ونقلت إلى متحف القاهرة . وقامت عدة محاولات لفك طلاسمها ، وهى من صنع العمال من أهل سيناء فى مناجم الفيروز ، ويرجع تاريخها إلى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد ، أى أنها أقدم بنحو ستة قرون من نقش أحيرام ملك جُبَيل[١] ، والتى وجدها العالم الأثرى بيير مونتيه P. Montet ، واعتبرت التالية لأقدم النقوش الفينيقية المعروفة .

وبعد تطور الأبجدية السينائية نقلت حروفها إلى شمال الشام ، ثم حُوّلتْ هناك إلى الحروف المسمارية الفعلية ، كما تدل على ذلك لوحات رأس الشمرة ، التى ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ومن الواضح أن هذا الخط الذى كُشف حديثًا هو خط أبجدى سامى ، ورغم أنه كُتب بالقلم على لوحات من الغرين فإن حروفه ليست مستعارة من الحروف السومرية الأكادية السابقة ، ففيه حُوّلتْ الأبجدية السينائية إلى غرار الرموز (الوتدية) المسمارية .

ويرى العلماء المحدثون أن الكنعانيين – وكانوا أول من استعمل طريقة للكتابة تستعمل فيها الحروف خالصة – نقلوا طريقتها فى الأصل عن الحروف الهيروغليفية المصرية ، ولكن الهوّة بين طريقتى الكتابة كانت دائمًا شاسعة ، فجاءت الكتابة السينائية الآن لتصل بين الكتابتين ، ولتكون الحلقة المفقودة بينهما . ونضرب لذلك مثلا فنقول إن السامى من أهل سيناء أخذ من الهيروغليفية الرمز الذى شكله رأس ثور (بصرف النظر عما يعنى رأس الثور فى اللغة المصرية) وأطلق على رأس الثور هذا فى لغته اسم « ألف » ، ثم استعمل هذا الرمز ليدلّ وفق قواعد الأكرفونية على الصوت ، وبالطريقة نفسها أطلق على الرمز الذى يدل على البيت وسمّاه « بث » واستعمله للدلالة على الصوت (ب) وهكذا[٢] .

ما وراء الأردن ، وجعلوا عاصمتهم البتراء وهى فى العبرية سلع ، وفى العربية الرقيم ، واسمها الحديث وادى موسى .

وكان الأنبلط يتكلمون اللغة العربية ويستخدمون الحروف الآرامية ، وبلغت البتراء أقصى درجات الغنى والرخاء فى القرن الأول الميلادى ، وكان الأنباط يكونون حلقة هامة فى السلسلة التجارية التى كانت عاملا فى ازدهار بلاد العرب الجنوبية ، وبعد القرن الأول الميلادى فقدت مزايا المركز الممتاز ، وأخذت دولة الأنباط تتدهور ، ثم نطوت راية الإمبراطورية الرومانية واختفى تاريخ البتراء بعدها لعدة قرون .

(١) جبيل مدينة من أشهر مدن الفينيقيين ، ويطلق عليها فى المصادر اللاتينية اسم بيبلوس .

(٢) فيليب خورى حتى : تاريخ العرب ،ترجمة محمد مبروك نافع ، ص ٨٤ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٩ .

والأصل السينائى للأبجدية يشرح لنا كيف كان فى الإمكان نقلها من ناحية إلى جنوب بلاد العرب ، حيث مرت بتطور مستقل ، واستعملها المعينيون فى تاريخ ربما كان يرجع إلى سنة ١٢٠٠ ق . م . ومن ناحية أخرى كيف نُقِلتْ إلى الشمال حيث الساحل الفينيقى ، ولقد نُقِلتْ الأبجدية مع التجارة فى الفيروز الذى كان يبيعه العرب إلى الفينيقيين ، كما أنها بالمثل تمامًا نقلت مع التجارة من الفينيقيين إلى اليونان ، وأصبحت أم الأبجديات جميعًا[١] .

وأقدم رسم عربى وصل إلينا كان مشتقا من خط المسند[٢] اليمنى ، وهذا مشتق بدوره من الخط الكنعانى ، ووصل إلينا فى نقوش تحمل ثلاثة أنواع متقاربة منه ، عُثِر عليها فى منطقة واسعة فى شمال شبه الجزيرة العربية ، تمتد من دمشق حتى منطقة العُلا ، هى النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية . والخط اللحيانى لا يكاد يختلف عن خط المسند الذى اشتقَّ منه . ويسير مستعرضًا من اليمين إلى الشمال . والخط الثمودى مشتق من خط المسند أيضًا ، واتجاهاته غير ثابتة ، وغالبًا يتجه من أعلى إلى أسفل . والخط الصفوى يشبه الخط اللحيانى غير أنه مختلف الاتجاهات ، فتارة يقرأ من اليمين إلى الشمال وأخرى من الشمال إلى اليمين . وحروف الهجاء فيها كلها ترسم متفرقة ، وأغفلت الحركات القصيرة ، وأصوات المدّ الطويلة إغفالا تاما ، وكانت مجردة من الإعجام . وبعض حروفها يستخدم للرمز إلى أكثر من صوت واحد .

لدينا عدد من النقوش يمثّل تطور الخط العربى الذى نكتب به الآن فى مراحله المختلفة ، منذ كان تقليدًا للخط النبطى ، أو هو الخط النبطى محورًا ، إلى أن استقام فنا قائمًا بذاته ، له أصوله وقواعده وأساتذته وألوانه على النحو الذى يُعرف به اليوم . وخارج عن موضوعنا أن نعرض لكل هذه النقوش ، فلذلك موضعه من الدراسات السامية ، وإنما يعنينا أن نشير إلى بعض منها ، بما فيها الخط النبطى ، لتعين على تصوُّر مراحل تدرُّج الخط العربى .

فقد عثر فى أم الجمال ، جنوب حوران ، من أعمال شرقى الأردن ، على نقش

---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢) سمى المسند لأن معظم حروفه تستند إلى أعمدة ، وكان علماء المسلمين هم الذين انتبهوا إلى هذه الظاهرة ، وأطلقوا عليه هذا الاسم .

عربي حديث	ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي
حيري أركوفي	𐩱 𐩲 𐩳 𐩴 𐩵 𐩶 𐩷 𐩸 𐩹 𐩺 𐩻 𐩼 𐩽 𐩾 𐩿 𐪀 𐪁 𐪂 𐪃 𐪄 𐪅 𐪆 𐪇 𐪈 𐪉 𐪊
نبطي	𐢀 𐢁 𐢂 𐢃 𐢄 𐢅 𐢆 𐢇 𐢈 𐢉 𐢊 𐢋 𐢌 𐢍 𐢎 𐢏 𐢐 𐢑 𐢒 𐢓 𐢔 𐢕 𐢖 𐢗 𐢘
سطرنجيلي	𐎀 𐎁 𐎂 𐎃 𐎄 𐎅 𐎆 𐎇 𐎈 𐎉 𐎊 𐎋 𐎌 𐎍 𐎎 𐎏 𐎐 𐎑 𐎒 𐎓 𐎔 𐎕 𐎖 𐎗 𐎘
كنعاني	𐤀 𐤁 𐤂 𐤃 𐤄 𐤅 𐤆 𐤇 𐤈 𐤉 𐤊 𐤋 𐤌 𐤍 𐤎 𐤏 𐤐 𐤑 𐤒 𐤓 𐤔 𐤕 𐤖 𐤗 𐤘
آرامي	𐡀 𐡁 𐡂 𐡃 𐡄 𐡅 𐡆 𐡇 𐡈 𐡉 𐡊 𐡋 𐡌 𐡍 𐡎 𐡏 𐡐 𐡑 𐡒 𐡓 𐡔 𐡕 𐡖 𐡗 𐡘
مصري للعامة : ديموطيقي	𓀀 𓀁 𓀂 𓀃 𓀄 𓀅 𓀆 𓀇 𓀈 𓀉 𓀊 𓀋 𓀌 𓀍 𓀎 𓀏 𓀐 𓀑 𓀒 𓀓 𓀔 𓀕 𓀖 𓀗 𓀘
مصري للخاصة : هيراطيقي	𓂋 𓂌 𓂍 𓂎 𓂏 𓂐 𓂑 𓂒 𓂓 𓂔 𓂕 𓂖 𓂗 𓂘 𓂙 𓂚 𓂛 𓂜 𓂝 𓂞 𓂟 𓂠 𓂡 𓂢 𓂣
مصري مقدس : هيروغليفي	𓄿 𓅀 𓅁 𓅂 𓅃 𓅄 𓅅 𓅆 𓅇 𓅈 𓅉 𓅊 𓅋 𓅌 𓅍 𓅎 𓅏 𓅐 𓅑 𓅒 𓅓 𓅔 𓅕 𓅖 𓅗

من ثلاثة سطور ، آرامى اللغة ، نبطى الخط ، وصورته :

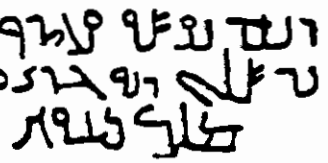

وكلماته فى حروف عربية حديثة هى :

١ – دنه نفسو فهرو .

٢ – بَرْ سُلىَ ربو جذيمت .

٣ – ملك تنوح .

وترجمته إلى اللغة العربية :

١ – هذا قبر[١] فهر .

٢ – ابن سُلى مربى جذيمة .

٣ – ملك تنوخ .

وقد وُجِد النقش بلا تاريخ ، ويرجح المستشرق الألمانى إنوليتمان Enno Littman والكونت دى فوجويه De Vogué أنه يرجع إلى عام ٢٧٠ م ، ويميل ليتمان إلى أن كاتب النقش عربى يعرف الآرامية ، لأنه وضع أسماء الأعلام لعربية فى قالب آرامى بزيادة حرف الواو فى كلمات : نفس وفهر ومربى . ويرى أن حرف الواو الزائد وضع لينوب عن التنوين فى حالة الرفع ، ولعل كاتب هذا ننقش أراد بإثبات الواو أن يدل القارئ على النطق الصحيح للكلمة . ويضم النص حروفاً غير مرتبط بعضها ببعض ، مثل حرف السين من كلمة « نفسو » فى السطر الأول ، والياء من كلمة « جذيمت » فى آخر السطر الثانى ، أما كلمتا « سلى » و « ملك » فرسمهما قريب جدًّا من رسمهما العربى الإسلامى .

ويليه نقش النمارة وقد عثر عليه ديسو Dussaud وماكلر Macler عام ١٩٠١ م ، على بعد كيلو متر واحد من النمارة القائمة على أنقاض مخفر رومانى

---

(١) كلمة نفس تعنى قبرًا فى اللغة العربية البائدة .

قديم شرقى جبل الدروز ، على مقربة من دمشق ، وأطلق عليه اسمها ، كُتِبَ تخليدًا لذكرى الملك امرئ القيس بن عمرو المتوفى عام ٣٢٨ ، وكان ملكا على الحيرة ، وامتدّ نفوذه حتى شمل بادية الشام ، ويحمل تاريخ سنة ٢٢٣ من سقوط سلع ، وهى توافق تاريخ وفاة الملك ، وصورة النقش :

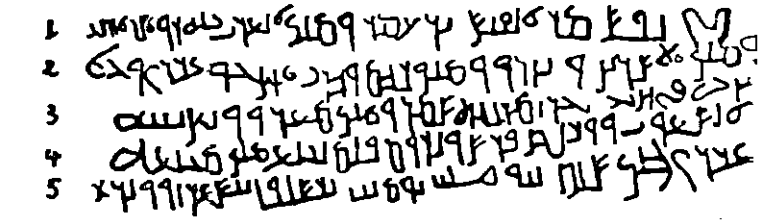

وكلماته فى حروف عربية :

١ – تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج

٢ – وملك الأسدين ونزرا وملوكهم وهرب مذحجوا عكدى وجا

٣ – بزجى فى حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه

٤ – الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ – عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

وترجمته إلى العربية :

١ – هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى حاز التاج

٢ – وملك الأسدين ونزارا وملوكهم وهرّب مذحج بقوته وجاء

٣ – إلى نزجى فى حبج نجران مدينة شمر ، وملك معدا وأنزل بنيه

٤ – الشعوب . ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ – فى القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ كسلول[1] ، ليسعد الذين ولدهم .

والنقش ، كما ترى من صورته ، مدوّن بالرسم النبطى المتصل الحروف ، ويشتد وجه الشبه بينه وبين الرسم العربى فى أولى مراحله ، ويشتمل على جمل كثيرة تتفق كل الاتفاق مع اللغة العربية الباقية ، مثل : « فلم يبلغ ملك

---

(١) كسلول : كانون الأول .

مبلغه » و « نزل بنيه الشعوب » و « ملك العرب كلها » وهلك سنة ... ، ويمكن القول أن هذه الجمل أقدم ما وصلنا مدونًا من الأسلوب العربى الذى جاء فيه الأدب الجاهلى . وكان الرأى فيه أنه كُتِب باللغة الآرامية ، ويضم بعضًا من الكلمات العربية ، ولكنّ كثرة هذه الكلمات ، واتفاقها مع العربية الباقية ، جعل المستشرق **إنو ليتمان** يرى العكس ، ويقرّر أنه نقش عربى مكتوب بالقلم النبطى ، ويشتمل على بعض الألفاظ الآرامية ، وأكثر كلماته تبدو واضحة ، يستطيع أن يتبينها أى قارئ مثقف معاصر مع شىء من التأمّل ، فحى السطر الأول : نفس مر القيس بن عمر ملك العرب . وفى الثانى : وملك الأسدين ونزرا وملوكهم .. وفى الثالث : ... مدينة شمو وملك معد[1] . وفى الرابع : الشعوب ... فلم يبلغ ملك مبلغه . وفى الخامس : عكدى ، هلك سنة ... يوم ...

ثم عُثِر على نقشين هامين أحدث تاريخًا من نقش **النمارة** ، ويمثلان فى تاريخ الخط العربى تطوراً أكثر تقدماً ، فرسمها مستقل عن الرسم النبطى ، أو قطع مرحلة هامة فى طريق الاستقلال عنه . وفيهما تقترب صورة الحرف من الصورة التى نستخدمها الآن ، ولا يجد المرء صعوبة كبيرة فى قراءة كلماته ، وقد اكتشف الأول منهما الأثرى ساخو Sachau عام ١٨٧٩ ، وأطلق عليه نقش زبد اسم مدينة خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، فى الجنوب الشرقى من مدينة حلب ، ووُجد على أحد أبواب المعابد المقامة للقديس سرج ، ويرجع تاريخه إلى عام ٥١٢ م ، وهو مدوّن فى ثلاثة لغات : العربية القديمة ، والسريانية ، واليونانية ، وصورة ما بقى من الكتابة العربية هى :

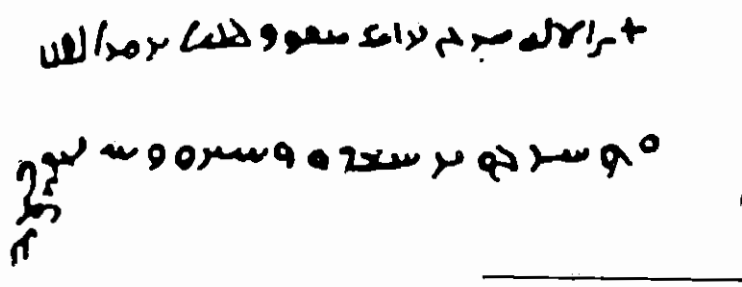

---

(١) التبس الأمر على الدكتور ناصر الدين الأسد فى تفسيره كلمات النقش ، فجعل سطوره أربعة وهى خمسة ، وأسقط السطر الثالث تمامًا ، وفسر كلمات السطر الرابع على أنه الثالث ، والخامس على أنه الرابع . انظر « مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية » ، ص ٢٨ و ٢٩ .

ورسمها بالحروف العربية المعاصرة هو :

١ – م الإله سرجو بر أمت منفو وهنىء بر مر القيس .

٢ – وسرجو بر سعدو وسترو و (شر) يحو بتميمى .

ويشتمل النص على أسماء أعلام عربية يظن أنها أسماء الذين اشتركوا فى بناء الكنيسة ، ويرى المستشرق الفرنسى **بلاشير** Blachere أن النصّ العربى ربما أضيف إلى النقش فى زمن متأخر لأنه ليس ترجمة للنص السريانى اليونانى ، وسائر كلمات لنقش ، كما يبدو من الصورة ، عربية الخط ، على اختلاف العلماء فى قراءتها .

والنقش الثانى أحدث من نقش زبد بأكثر من نصف قرن تقريبًا ، وعثر عليه العالم **فتزتين** Wetztein فى **حوران اللجا** الواقعة جنوب دمشق ، شمال غربى جبل الدروز ، عام ١٨٦٤ ، ومكتوب باللغتين اليونانية والعربية ، ووصل إلينا قسمه العربى سليما كامل الكلمات ، وهو نصب تذكارى أقيم حسب عبارة النص اليونانى للقديس يوحنا المعمدان ، ويحمل تاريخ عام ٤٦٣ حسب تقويم بصرى ، أو ما يعدل ٥٦٨ للميلاد ، وصورته :

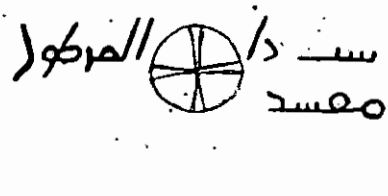

وكلماته فى الرسم العربى الحديث :

١ – أنا شرحيل بن ظلمو (= ظالم) بنيت ذا المرطول (= الكنيسة)

٢ – سنت ٤٦٣ بعد مفسد

٣ – بعم (= بعام)[1] .

---

(١) كان ليتمان أول من فك رموز « مفسد خيبر بعام » ، وكانت قبله مبهمة ، ويرى أنها تشير إلى غزوة أحد أمراء بنى غسان لخيبر ، ويستدل بفقرة جاءت فى كتاب « المعارف » لابن قتيبة : « ثم ملك بعده الحارث ابن أبى شمر .. وكان غزا خيبر فسبى من أهلها ، ثم أتتقهم بعد ما قدم الشام » .

وهذا النقش هو أول نص جاهلى عربى كامل فى كل كلماته ، وبه أصبح بين أيدينا نموذج لطريقة كتابية تكوّنت نهائيا ، ولا تختلف عن بقية النقوش التى سنعثر عليها فيما بعد الهجرة إلا فى أشياء قليلة مردّها إلى المواد المستعملة ، أو مهارة النقاش .

أمّا أقدم كتابة إسلامية وصلت إلينا ، فنُصب على قبر رجل يدعى عبد الرحمن ابن خير ، وعُثِرَ عليه فى **الفسطاط** ، ويعود تاريخه إلى ٣١ للهجرة (= ٦٥٢ م) . ويوجد فى متحف الآثار الإسلامية بالقاهرة ، وهو النقش الوحيد الذى بين أيدينا من هذه الفترة المبكرة من تاريخ الكتابة العربية . وذكر الدكتور ناصر الدين الأسد أن « الدكتور محمد حميد الله عثر على عدّة نقوش على قمة الطرف الجنوبى لجبل سلع فى المدينة المنورة ، خارج سورها الشمالى ، ويرجح – أى الدكتور حميد الله – أن هذه النقوش ترجع فى تاريخها إلى غزوة الخندق فى السنة الخامسة للهجرة » . لكن الدكتور ناصر الأسد اكتفى بهذه الإشارة ، دون أن يورد نص هذه النقوش أو صورتها ، وأحالنا على المصدر الذى اعتمد عليه ، وهو مجلة الثقافة الإسلامية Islamic Culture وهى ليست بين يدىّ ، ولا فى مكنتى الآن أن أرجع إليها[1] .

وصورة نقش عبد الرحمن بن خير فيما يلى :

ونصه :

١ – بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر

٢ – لعبد الرحمن بن خير الحجازى اللهم اغفر له[2]

٣ – وأدخله فى رحمة منك وآتنا معه

٤ – استغفر له إذا قرأ هذا الكتاب

٥ – وقل آمين وكتب هذا

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٣٢ .

(٢) يلاحظ أن الكلمات مجردة من الإعجام ، والرمز ، وأصوات المد الطويلة ، ولذلك قرئت على أوجه كثيرة . فقرأ فيت G. Wiet الكلمة الرابعة « خير » ، وقرأها ولفنسون « جبر » ، ويرى ليتمان أنها يمكن أن تقرأ « جابر » أو « جبار » أو « حبير » وقرأ فيت الكلمة الخامسة « الحجرى » ، وآثر ولفنسون « الحجازى » .

٦ – لكتب (الكتاب) فى جمدى (جمادى) الآ
٧ – خر من سنت إحدى و
٨ – ثلثين (ثلاثين)

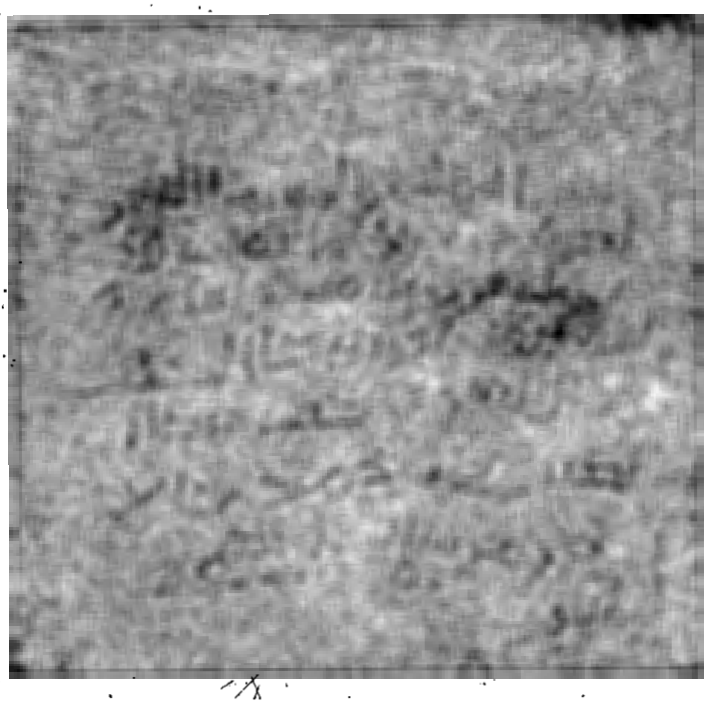

ويلاحظ أن التأثير الإسلامى واضح فى النقش ، وبعض كلماته مقتبس من القرآن . ولدينا نقشان آخران يرجعان إلى هذا القرن ، أولهما عُثِر عليه فى قبة الصخرة ببيت المقدس ، ويرجع الى عام ٧٢ هـ = ٦٩١ م ، والثانى نقوش قصر برقة ، يحمل تاريخ ٨١ هـ = ٧٠٠ م .

لكن كتابة النقوش لها طريقتها . والكتابة العادية لمتطلبات الحياة اليومية ، أو تسجيل الوثائق الأدبية ، لها طريقة أكثر بساطة ، وأشد أناقة ، وأقدم ما لدينا منها ثلاث رسائل بعث بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، وإلى المنذر بن ساوَى ، وإلى النجاشى فى الحبشة ، وقد عثر على مايظن أنه الأصول الحقيقية لهذه الرسائل ، ومهما يكن الرأى فى أصالتها ، فجانب الرسم منها يصوّر ، دون ريب ، طريقة كتابة الرسائل فى القرن الأول الهجرى .

أرسل النبى – صلى الله عليه وسلم – كتابه إلى المقوقس ، عظيم القبط فى مصر ، مع حاطب بن أبى بلتعة ، سنة ست من الهجرة ، وزعم بعض المستشرقين أنهم وجدوا النسخة الأصلية للكتاب فى الصعيد [1] ، وصورتها :

ونصها :

١ – بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ور
٢ – سوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على
٣ – من اتبع الهدى أما بعد فإنى
٤ – أدعوك بدعاية الإسلام أَسْلِمْ
٥ – تَسْلَم يؤتك الله أجرك مرّتين
٦ – فإن توليت فعليك إثم كل القبط
٧ – يا أهل الكتاب تعالوْا إلى كلمة
٨ – سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله
٩ – ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا

---

(١) راجع مجلة الهلال ، سنة ١٣ ، ص ١٠٣ و ١٦٠ .

١٠ – بعضاً أرباباً من دون الله فإنْ
١١ – تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأناّ مسـ
١٢ – لمون

وأرسل الثانية إلى المنذر بن ساوَى العَبدى صاحب البحرين ، حملها إليه العلاء بن الحضرمى ، وكُتِبتْ إليه ردا على رسالة منه إلى الرسول عند ما دعاه إلى الإسلام وصورتها :

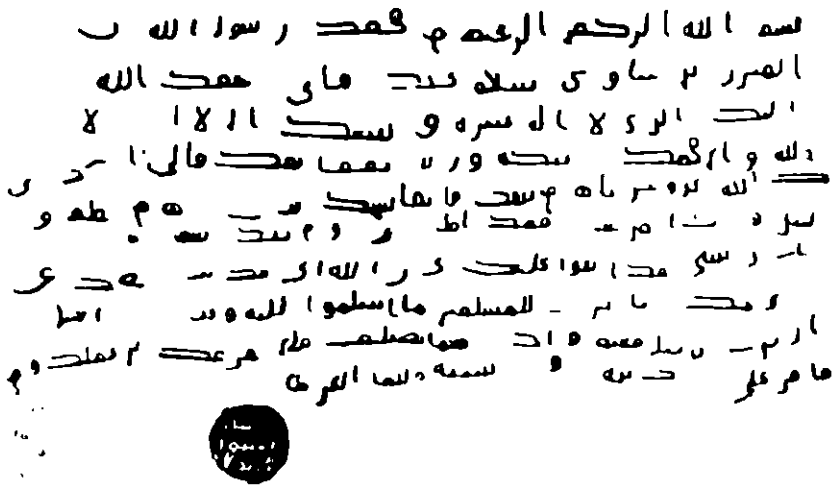

ونصها :

١ – بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى
٢ – المنذر بن ساوى سلام عليك فإنى أحمد الله
٣ – إليك الذى لا إله غيره ، وأشهد أن لا إله إلا
٤ – الله وأن محمداً نبيه ورسوله أما بعد فإنى أذكرك
٥ – الله عزّ وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وأنه من يطع
٦ – رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن ينصح لهم فقد نصح لى
٧ – وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً وإنى قد شفعتك فى
٨ – قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل
٩ – الذنوب فاقبل منهم وإنك مهما تُصْلح فلن نعزلك عن عملك ومن
١٠ – أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية

ولم يتيسر لى رؤية أصل الرسالة الموجهة إلى نجاشى الحبشة ، أو صورة لها ، ولو أن نصها موجود فى معظم المصادر التاريخية ، ويلاحظ أن التشابه كبير ودقيق بين رسم هاتين الرسالتين ، وبين الرسم لذى كُتِبَ فيه النقش الذى عُثِرَ عليه فى الفسطاط .

وثمة مجموعة من أوراق البردى ، يرجع أقدمها إلى عام ٤٠ للهجرة ، ٦٦٠ للميلاد ، عُثر عليها فى مكان قريب من أهرام سقارة ، وفى الفيوم وأخميم والأشمونين والبهنسا وميت رهينة وأدفو ، ووُجِدَ بعضها متلاصقاً متماسكاً متحجرًا ، مطموساً بالتراب ، ووصل بعضها الآخر ممزّقاً كله أو بعضه لرطوبة الأرض ، أو بفعل النيران ، ووُجِدت محفوظة فى جِرار من فخار أو سلال ، أو ملفوفة فى أدراج صغيرة ، مربوطة وعليها طابع المؤلف وخاتمة وتسرب معظمها إلى مكتبات ومتاحف فيينا وبرلين وباريس ولندن . وقسم منها مكتوب باللغة اليونانية ، والقسم الآخر مكتوب باللغة العربية ، وقام بنشر هذا القسم الأخير **أدولف جروهمان** Adolf Grohmann ، أستاذ اللغات السامية وتاريخ الحضارة الشرقية فى الجامعة الألمانية فى براج ، وأهمية هذه الوثائق من الناحية الأدبية محدودة للغاية أو معدومة ، لأن جلها عقود ووثائق تتصل بحياة الناس اليومية من بيع وشراء ، لكنها ذات أهمية بالغة فى التأريخ لتطور الخط العربى ، وخاصة فى مراحله الإسلامية المبكرة ، قبل أن تصبح الثقافة أمرًا شائعًا والخط شيئًا يهوى ويُدرس ويُعلّم .

تدل هذه الوثائق على وجود كتابة منذ الفتح الإسلامى ، ذات أشكال مستديرة تختلف تماماً عن الكتابة الكوفية الموجودة على المبانى والنقود ونسخ القرآن القديمة . وإزاء هذا الواقع دعا المستشرق **سلفستر دى ساسى** de Sacy إلى إعادة النظر من جديد فى الرأى القائل بأن الخط الكوفى سابق للكتابة العادية السريعة ، والتى عُرِفتْ بالنَّسخى ، لأن استخدام هذا يظهر فى أوراق البردى ، فى الوقت الذى كُتِبَ فيه بالكوفى على المسلات والمبانى . والحق أن هذا القول يصدق على كتابات القرن الأول الهجرى ، السابع الميلادى ، أما كتابات القرن السادس الميلادى ، القرن الذى سبق مولد الإسلام ، فمن الصعب تأكيد هذ الحقيقة أو إنكارها ، لأننا لا نملك من هذا العصر سوى نقوش فحسب ، وليس بين أيدينا

نموذج واحد للكتابة العادية التى تؤدى أغراضاً عاجلة ، وتُخَطّ على ماكان يكتب عليه فى تلك الحقبة من الزمن[١] . وتفسير هذا التباين باختلاف المواد المستعملة للكتابة عليها لا قيمة له ، لأن الكتابة العادية سرعان ما حلتْ ، فيما بعد ، محل الكتابة لكوفية حتى على الحجر[٢] .

ويعتقد برجيه Berger أن التباين بين الخط الكوفى والخط النسخى يعود إلى أسباب جغرافية ، فالكوفى كان يكتب فى بلاد العرب وسواحل سورية ، أما النسخى فكان مستعملاً فى مصر ، التى ظلت بعيدة عن التأثيرات السريانية فاحتفظت بحرية تصرّفها ، وإنها لتبدو كأنها الوارث الوحيد للأنباط[٣] . وقد حاول بلاشير أن يجرّد هذه النظرية من قيمتها ، وأن يرد التباين إلى الاستعمال نفسه ، فالكتابة العادية السريعة (النسخى) هى المستخدمة فى الأغراض العاجلة والمراسلات والعقود الرسمية أو الخاصة ، والكوفية مخصصة للنقوش وحفظ النصوص الدينية ، واستدل على ذلك باستخدام الخط الكوفى فى نقش الفسطاط [٤] . والواقع أن الخط الذى كُتب به نقش الفسطاط ليس كوفيا بل هو إلى الخط النسخى أقرب ، وإن يكن فى صورة ساذجة غير متقنة [٥] .

وبالجملة فإن الخط العربى ، كما يرى برجيه « تولد تدريجيا ، بعد أن مر بمراحل عديدة من التطور الوئيد ، من كتابة السكان الذين كانوا يحتلون شمال شبه الجزيرة فى القرون الأولى للميلاد » . ويخضع هذا التطور لنفس القانون الذى خضعت له كل الكتابات التى اشتُقت من الكتابة الآرامية ، لقد كان تغيرًا تدريجيا « أجد به ودفعه فى تيار الاستعمال طريقة الوصل بين الحروف التى نرى تطبيقاتها الأولية فى نقوش تدمر وحوران »[٦] لقد تولد الشكل لكوفى من السطرنجلى ، واشتق هذا من السريانى ، وكان مستخدما عند النصارى اليعقوبيين فى العراق ، بينما اشتقَّ ، النسخى (أو الحجازى) من الخط النبطى ، وكان يستخدم فى المنطقة

---

(١) Blachçre Regis : Histoire de la Littçrature Arabe des Origines a la fin du Xme siécle de J. - C . vol I. 60 sgg . Paris 1952

(٢) Février, J. : Histoire de L.Ecriture. Vol. I, 263. Paris 1949

(٣) Berger, Ph : Histoire de l'Ecriture Vol. 29L, 293. Paris. 1891

(٤) Blachçre : Histoire de la Litterature Arabe, Vol L, 63

(٥) انظر ص ٣٩ .

(٦) M de Vogué : Syrie Centrale, P. 12, Paris, 1868.

بين حوران والحجر (حديثاً مدائن صالح) ؛ وفى أواخر القرن السادس كان مستخدماً فى دومة الجندل (الجوف الحالى شرقى نجد) وفى الحجاز . وبحكم المركز التجارى الهام الذى احتلته مكة فى الجزيرة العربية فى هذا القرن وقبله ، فمن المحتمل أن هذا الخط كان أكثر انتشاراً مما نظن . ويمكن أن نوجز تطور الخط العربى فى الرسم التالى :

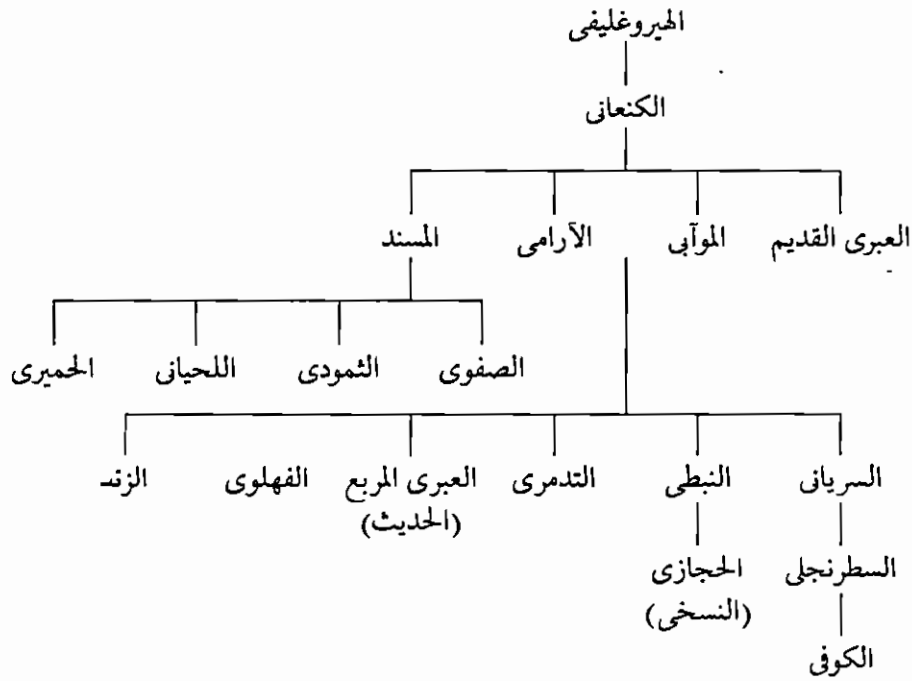

ويلاحظ فى هذه النقوش ، وكتابات صدر الإسلام ، أنها خالية من النقط والإعجام خلوًّا كاملاً ، وهى ظاهرة تشترك فيها كل الأبجديات السامية القديمة ، باستثناء الأبجدية الحبشية . ويُراد بالإعجام تمييز الحروف المتشابهة ، بالنقط ، أو الشكل ، ووضع علامات تدلّ على حركات الحروف ، قصيرة أو طويلة ، وفى عصور تالية لصدر الإسلام ، نجد من يستخدم النقط بمعنى الإعجام أحياناً .

وأول محاولة للنقط كان دافعها وهدفها ، كبقية العلوم الأخرى ، الحفاظ على دقة ضبط ألفاظ القرآن الكريم ، وكان الناس يقرأون فى مصاحف عثمان رحمه الله وهى غير منقوطة ولا معجمة فيخطئون القراءة ، فكلمة « بلو » قرأها **حفص** ابن سليمان بن المغيرة (تيلو) وقرأها عبد الله بن مسعود (تتلو) وكلمة (ساً) قرأها **حفص** (تثبيتًا) وقرأها **مجاهد** بن جبر (تبيينًا) . والآية « جعل السمه (السقاية) فى رحل أخيه » قرأها رجل (جعل السفينة فى رحل أخيه) وأمثلة أخرى كثيرة ، وقف عليها **حمزة الأصفهانى** مؤقفاً كاملا هو (التنبيه على حدوث لتصحيف)[1] ويروى المؤرخون أن **أبا الأسود الدؤلى** المتوفى عام ٦٩ هـ = ٦٨٨ م جزع للأمر ، ودخل على **زياد بن أبيه** وهو والى العراقين ، فقال له « أصلح الله الأمير ! إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم . أفتأذن لى أن أضع لهم مايقيمون به كلامهم » فأبى عليه زياد ذلك ، ثم عاد فأمره بما نهاه عنه لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول « أصلح الله الأمير . توفى أبانا وترك بنون ... » فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول به ، والمضاف ، وحروف الجر والرفع والنصب والجزم . وأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التى تصلحها [2] ثم وضع أول قواعد النقط : نقطة أعلى الحرف لمفتحة ، وبين يديه للضمة ، وتحته للكسرة وللتنوين نقطتان ، ولم يضع علامة للسكون ، واعتبر إهماله علامة عليه .

ويبدو أن صنيع **أبى الأسود الدؤلى** لم يكن كافياً ، فلم يوقف موجة اللحن والخطأ الفاشية ، فكثر التصحيف وانتشر فى العراق ، بعد أن غبر الناس يقرأون فى مصاحف **عثمان** نيفاً وأربعين سنة ، إلى أيام **عبد الملك بن مروان** ، وأدرك **الحجاج** ذلك واعياً خطره : « وفزع إلى كُتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ، فيقال إن **نصر بن عاصم** قام بذلك ، فوضع **النقط** أفراداً

---

(١) مخطوط بمكتبة البرلمان بطهران - إيران ، تحت رقم ٢٨٢ .

(٢) لا تزال أولية النحو العربى مجهولة لما تدرس ، ولا أتصور أن الأمر تم بالبساطة التى تذكرها المصادر الأولى ، وكلها تقرر أن **أبا الأسود الدؤلى** وضعه من ذات نفسه وإنشائه أو بإشارة من الإمام على رضى الله عنه وأية دراسة جادة فيما أرى ، لابد أن تدرس النحو العربى مقارنًا بنحو بقية اللغات السامية الأخرى ، وسوف تلقى هذه من الضوء ما يساعد على تكوين رأى علمى فيما يتصل بنشأة النحو العربى ومراحل تطوره .

وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف ، فغبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ، فكان التصحيف مع استعمال النقط أيضاً يقع ، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يتبعون النقط بالإعجام » . أورد هذا النص **أبو أحمد العسكرى** فى كتابه « شرح مايقع فيه التصحيف والتحريف » ، وليس فيه ما يناقض الرواية الأولى ، فليس ثمة ما يمنع أن يكون **أبو الأسود الدؤلى** هو الذى بدأ الفكرة ، ثم جاء **نصر بن عاصم** فأتم ناقصها ، وأكمل قواعدها ، وزاد على سابقه الإعجام ، ويدعم هذا الرأى عندى أن أبا الأسود جعل نقطه بمداد مخالف لما كُتِبَ به القرآن تحرزا ، ووضع نصر بن عاصم ، ومن بعده **يحيى يعمر** ، نقط الإعجام بنفس المداد الذى كان يكتب به الكلام ، حتى لا يختلط بنقط أستاذهما أبى الأسود . وقد انتشرت تلك الطريقة وأضاف إليها الناس علامة التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى ، وزاد أهل المدينة علامة التشديد فجعلوها قوسين يجعلان فوق المُشدَد المفتوح ، وتحت المكسور ، وعن يسار المضموم ، ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس ، والكسرة تحت حدبته ، والضمة على شماله ، ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمّة والكسرة وأبقوه على أصله مع الفتحة . وزاد أهل البصرة السكون فجعلوه جرّة فقية فوق الحرف منفصلة عنه هكذا [–].

ظل الناس يكتبون على **طريقة أبى الأسود** ، **ونصر بن عاصم** ، طوال الدولة الأموية وصدر دولة بنى العباس ، وفى الأندلس حتى أواسط القرن العاشر الميلادى فلما شاعت الثقافة ، واستكثر الناس من نقط الحروف وإعجامها لتسهيل التعليم اشتبهت نقط الإعجام بنقط الشكل ، فاخترع **الخليل بن احمد** المتوفى ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م الشكل الذى نستعمله الآن ، فجعل الضمّة واواً صغيرة تخط فوق الحرف ، والفتحة ألفاً مستعرضة تكتب أعلاه ، والكسرة ياء رجعة ترسم تحته ، والشدة رأس شين مختزلة من « لفظ تشديد » ، والسكون رأس خاء مختزلة من لفظ « تخفيف » وهمزة القطع رأس عين مختزلة من لفظ « قطع » وهمزة الوصل رأس صاد مختزلة من لفظ « وصل »[1] .

---

(١) جانب الدكتور على عبد الواحد وافى الصواب ، حين زعم فى كتابه : فقه اللغة ، ص ١٧٥ ،

هل كان **النقط والإعجام موجودين فيما قبل القرن الأول الهجرى** ، أو بمعنى أدق قبل أن يبتدع أبو الأسود الدؤلى أولهما ، ونصر بن عاصم ثانيهما ؟ سؤال ليس من السهل الإجابة عليه نفياً أو إثباتاً فى بساطة ، لأن النقوش التى لدينا ، جاهلية أو من آثار النصف الأول للقرن الأول الهجرى ، غير منقوطة ولا معجمة ، ولا تحمل أية علامات لأصوات المدّ قصيرة أو طويلة ، ولو أن النقوش العربية التى دُونت بالخط النبطى ، وأشرنا إليها من قبل ، تحمل بعض كلماتها أصوات المدّ الطويلة ، وبخاصة الواو والياء ، مثل كلمة « الشعوب » فى نقش النمارة[1] و « شُرَحيل » « والمرطول » فى نقش « حرّان »[2] وأما الألف فأول ما نلقاها مكتوبة فى الرسائل النبوية إلى المقوقس والمنذر بن ساوى[3] ، ولانجد لأصوات المد القصيرة أية إشارة من أى لون فى أى نقش جاهلى ، ولم تصلنا كتابة جاهلية على رق أو بردىّ .

أما بعد الإسلام ، وقبل أبى الأسود الدؤلى ، فيذكر الدكتور ناصر الأسد ، نقلاً عن الدكتور أدولف جروهمان ، أن ثمة بردية يرجع تاريخها إلى عام ٢٢ للهجرة ، على عهد عمر بن الخطاب ، وهى مكتوبة باللغتين العربية واليونانية ، وأن بعض حروفها منقوط معجم ، وهى حروف : الخاء والذال والزاى والشين والنون . ويذكر نقلاً عن ج . س . مايلز Miles G. C. أن نقشاً وجد بقرب الطائف يرجع تاريخه إلى سنة ٥٨ هجرية ، على عهد معاوية بن بى سفيان ، وأن أكثر حروفه التى تحتاج إلى نقط منقوطة معجمة[4] .

لطبعة الثالثة . القاهرة ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م أن مؤرخى العرب ينسبون اختراع هذه الطريقة إلى أبى الأسود الدؤلى ، والحق أن النقط كان من صنعه . أما طريقة الرسم هذه فمن عمل الخليل بن أحمد ، ولم يقل أحد منهم أن أبا الأسود هو الذى ابتدعها .

(١) راجع ص ٣٣ .

(٢) راجع ص ٣٥ .

(٣) راجع ص ٣٨ و ٣٩ .

(٤) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٠ والمصدران اللذان نقل عنهما هما :

(1) Adolf crohmann, from The World of Islamic Papyri, pt II

وصورة البردية ووصفها ونصها مع ترجمتها فى ص ١١٣ - ١١٤ . ثم انظر ص ٨٢ من نفس الكتاب .

(2) G. C . Miles, Early Islamic Inscriptions Near Taif in The Hijaz, JNES 7 (1948)

وصورة النقش هناك رقم . 18 .

لم يتيسر لى الاطلاع على البردية التى أوردها جروهمان ، ولا أكاد أطمئن إليها ، لأن الرسائل النبوية كتبت قبلها بما لا يزيد على خمسة عشر عاماً ، وأنفق فيها الكتاب كل جهدهم فنا وتجويداً ، لأنها موجهة من رسول إلى ملوك وأمراء ، ويُراد لها ، لكى تؤدى رسالتها كاملة ، أن تكون واضحة الخط ، كاملة الرسم ، سهلة القراءة ، لا تحمل إعجاماً ، وأن مصحف عثمان ، وقد كُتب بعد هذه الوثيقة بثمانية أعوام ، كان خالياً منه ، وما كان أحوجه إليه ، فمن أجل الحفاظ على نصه فكر العلماء فى النقط والإعجام . ووجود نقش وحيد بعض حروفه معجمة ، ويرجع إلى فترة لدينا منها نقوش أخرى غير معجمة ، لا يكفى لتأصيل قاعدة وتقرير حقيقة ، فربما أضيف إليه الإعجام فيما يعد ، عندما أصبح أمراً شائعاً فى كتابة النصوص والوثائق .

لم يتعوّد الناس النقط ، أو الضبط بمعنى أدق ، إلا بعد فترة طويلة ، حين شاعت العامية ، وكثر اللحن . أما الإعجام فلدينا وثيقة ترجع إلى سنة إحدى وتسعين هجرية ، ولم يعجم الكاتب منها على طولها النسبى غير كلمتين ، الكلمة الاولى من السطر الثانى عشر « يشتكيك » ، والكلمة الأولى من السطر الأخير « سنة » ظنا منه أن ترك إعجامهما يترك القارئ فى لبس ، وصورة الرسالة فى الصفحة المقابلة ، ونصها :

. . . . .	فادفع إليه ماكان
أما بعد فإن هشام بن عمر	له بأرضك من جاليته
كتب إلىَّ يذكر	ولا أعرفن مارددت
جالية له بأرضك ،	رسله أو كتب إلى
وقد تقدمتُ إلى	يشتكيك والسلام
العمال وكتبتُ إليهم	على من اتبع الهدى ، وكتب
ألا يؤوا جاليا فإذا	يزيد فى جمادى الآخرة
جاءك كتابى هذا	سنة إحدى وتسعين

ولكنى أشارك الدكتور ناصر الأسد رأيه ، فى أن عدم الإعجام ، – والنقط لم يكن موجوداً قطعاً – فيما بين أيدينا من نقوش جاهلية ، لا يعنى بالضرورة أن

الإعجام لم يكن معروفاً ولا مستعملاً ، فربما كان ذلك « ناجماً عن اطمئنان الكاتب إلى أن كلماته هذه المنقوشة فى نجاة من التصحيف والخلط فى القراءة ، لأنها أسماء أعلام ، وسنوات ، وكلمات بينها من اليسير معرفتها ، وربما كان مما يسوغ له إهمال النقط فوق ذلك صعوبة فنية ومشقة عملية فى النقش » .

وفى عرض الدكتور ناصر الأسد للمشكلة خلط بين لفظى « النقط » « والإعجام » ، فأورد كلمتى « منقوط معجم » و « ومنقوطة معجمة »[1] ، مما يوقع الدارس فى حيرة ، لأن النقط يُعنى به رسم أصوات المدّ والسكون ، لضبط نطق الكلمات ، على حين أن الإعجام يعنى به النقط الذى يفرّق بين الأحرف المتشابهة . والقول بجريانه فيهما على الترادف لا يزيل الشبهة ، لأنه جاء بهما معاً ، ولو استخدم أحدهما دون الآخر لكان له فى الترادف مندوحة .

ومنذ العصر العباسى أخذ الخط الكوفى يتنوع حتى أربى على خمسين نوعاً ، من أشهرها : المحرَّر ، والمشجَّر ، والمربَّع ، والمدوَّر ، والمتدخل . وبقى الخط الكوفى مستعملاً فى المبانى والسكة إلى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ، ثم نسى جملة ، حتى عاد إليه الفنانون فى عصرنا الحديث ، يحيون دارسه فيما يكتبون على جدران المبانى زخرفة ، أو يخطون من عناوين الكتب تجميلاً .

أما خط الرسائل فكان لوناً مستنبطاً من الخط الكوفى والحجازى ، ابتدعه قطبة بن سلحرر فى أواخر الدولة الأموية ، فاخترع خط « الجليل » الذى يكتب به على المبانى ونحوها ، وتوجد له نماذج متعددة على جدران مساجد القاهرة ومدارسها وأربطتها وسبُلها وخرائب قصورها : ثم « الطومار » وهو أصغر من « الجليل » ، وكانت تكتب به اسماء السلاطين وعلاماتهم على المنشورات والعهود وفى العصر العباسى ولّد إبراهيم الشجرى قلم الثلثين (أى ثلثى الطومار) ، واخترع من الثلثين آخر سماه « الثلث » . وولّد يوسف أخوه من « الجليل » القلم الرياسى ، وسُمى كذلك لأنه أعجب ذا الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون ، فأمر أن تُحَرَّر به الرسائل السلطانية ولاتكتب بغيره ثم عرف فيما بعد بقلم التوقيع .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٠ .

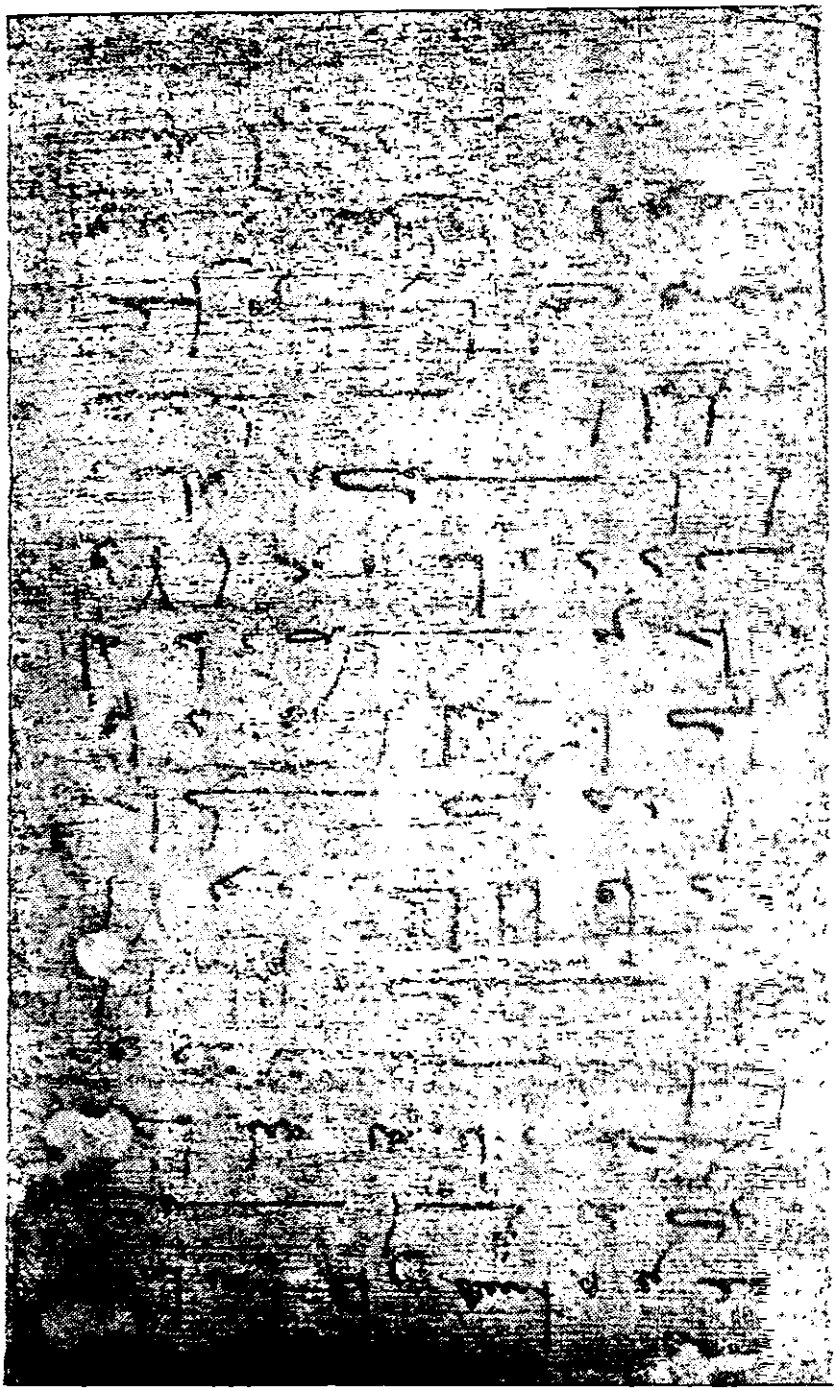

V3

واختـرع **الأحول** المحرّر قلم « النصف » و « خفيف الثلث » وقلّماً ليس فى حروفه شىء ينفصل عن غيره وسمّاه « المسلسل » ، وكانت تكتب به عامة الرسائل ، وغبار « الحلبة » وكان يكتب به فى بطائق الحمام الزاجل ، والرقاع وغيرها

ثم جاء الوزير أبو على **محمد بن مقلة**[1] وأخوه أبو عبد الله الحسن ، المتوفى ٣٣٨ هـ = ٩٤٩ م ، فتم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه ، على الأشكال التى نعرفها الآن ، فضبطا الحروف ، وقدّرا مقاييسها وأبعادها ، وأحكما ضبطها ، واخترعا له القواعد ، وعنهما انتشر الخط العربى كامل الصورة فى مشارق الأرض ومغاربها .

ثم اختُرع الشكل الفارسى ، وكان استعماله عاما فى أواسط آسيا وفارس ، وأبدع الخطاطون الأتراك فيما لدينا من أشكال للخط العربى ، وحوّلوا بعض أنواعه وخاصة الرقاع (الرقعة) إلى ما نعرفه الآن . وارتقوا بالمسلسل إلى الغاية وولّدوا منه خط العلامة السلطانية (الهمايونى) وكان أشهر خطاطيهم الحافظ **عثمان بن على** ، وهو نابغة الخطاطين جميعاً ، واختير معلم خط للسلطان **أحمد خان الثانى** (خليفة من ١٦٩١ م إلى ١٦٩٥ م) ، وللسلطان **مصطفى خان الثانى** (خليفة من ١٦٩٥ م إلى ١٧٠٣ م) ، وكان يجلس كل يوم أحد لتعليم الفقراء الخط مجانا ، ويوم الأربعاء لتعليم الأغنياء بأجر . وأشهر المصاحف وأكثرها تداولاً

(١) كان بن مقله سيىء الخطاطين دون منازع . تولى فى بدء حياته بعض أعمال فارس ، ثم أصبح وزير الخليفه المقتدر بالله سنة ٣١٦ هـ = ٩٢٧ م ، ثم كاد له أعداؤه عنده فقبض عليه سنه ٣١٨ هـ ، وصادر أمواله ونفاه إلى فارس ، وأصبح وزيرا للراضى فوسى به أعداؤه فقبض عليه وعزل وبقى معزولا الوزاره .

وحاول ابن مقله أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة المستضعف ، فوسى به الخليفة إلى ابن رائق ، فقبض عليه وقطع يده اليمنى . ثم ندم الراضى على ذلك ، وأمر الأطباء بملازمته إلى أن برأ ، فكان يسد القلم على ساعده ، ويكتب به وكاد له ابن رائق عندما أحس بأن الخليفه يفكر فى أن يوليه الوزارة ، فكانت السعيجه أن قطع لسانه ، وأقام فى الحبس مدة طويله ، فاسى فيها عناء شديدًا ، ولم يزل به حتى توفى عام ٣٢٨ هـ = ٩٣٩ م ومن شعره :

ما سنسب الحياه لكن تـوهمت ... بأمانهم فبانت عينى
بعد دينى لهم بدنيـاى حتى ... حرمانى دنياهـم بعد دينى
ولقد حطت ما استطعت بجهدى ... حفظ أرواحهـم فـم حفظونى
ليس بعد اليمين لذه عيش ... يا حياتى .. بانت عينى فبينى

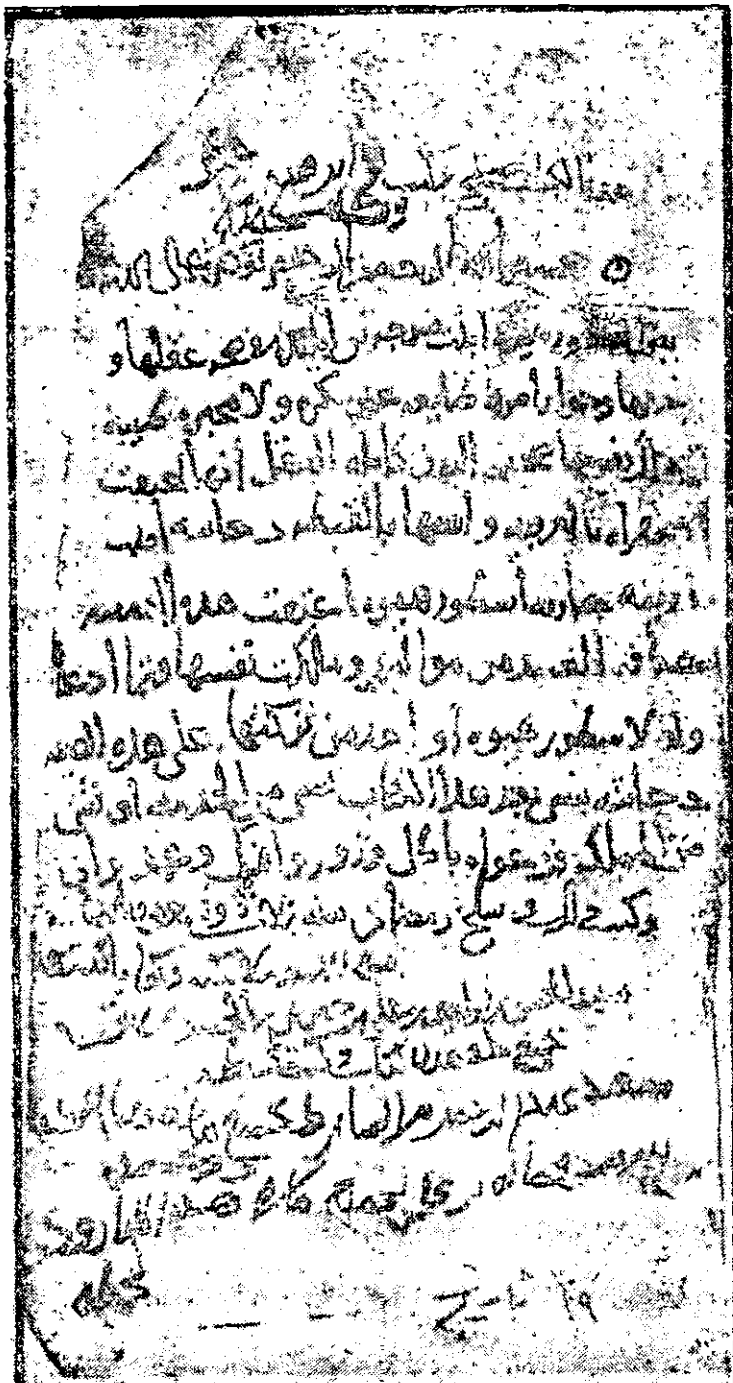

صورة وثيقة مكتوبة عل ورق البردى ترجع إلى عام ٣٩٣ هـ

مكتوب بخطه ، وقد نسخ منها خمسة وعشرين ، ومقداراً كبيراً من الرقاع والألواح وأجزاء القرآن ودلائل الخيرات .

وقد أوقف أبو العباس شهاب الدين أحمد بن على المعروف بالقَلْقَشَنْدِى ، نسبة إلى القرية التى ولد فيها ، والمتوفى عام ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م جانباً كبيراً من الجزء الثالث من موسوعته « صبح الأعشى » على الخط العربى ، تتبَّع فيه نشأته وأشكاله وفنونه ، وقواعده وصوره وهندسة حروفه ، ومايكتب به ، ومايكتب عليه ، وقوانين الكتابة وآدابها وطرقها . ونظم زين الدين شعبان بن محمد ابن داود الآثارىّ ، محتسب مصر ، ألفيَّة فى صناعة الخط سمّاها « العناية الربانية فى الطريقة الشعبانية » .

أما الأندلسيون والمغاربة فلم يسلكوا نهج ابن مقلة وأصحابه ، فظلوا يكتبون على طريقة الخط الحجازى إلى الآن ، مع شىء من التعديل ، وأبدعوا داخل هذا الإطار فنوناً منه ، وربما مال « الجليل » عندهم إلى بعض قواعد « الثلث » فى أواخر عصورهم ، كما يشاهد على جدران الحمراء بغرناطة ، ويختلف أهل المشرق عن أهل المغرب فى ترتيب الحروف ، فهى عند المشارقة : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ى . وهى عند المغاربة : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و لا ى . كما يختلف أهل المغرب عن أهل المشرق فى إعجام الفاء والقاف ، فهم ينقطون « الفاء » بنقطة من أسفلها ، والقاف بنقطة واحدة من أعلاها . وفى استخدام الشكل اللاتينى المعاصر للأرقام ، وهو استخدام سابق لموجة الاستعمار الأوربى المعاصر فى العالم الإسلامى ، وليس نتيجة له . ويرى علماء المغرب ، وهم على حق ، أن صور الأرقام التى يستخدمونها عربية أصيلة ، وليست منقولة عن الرسم اللاتينى ، لأن أوربا لم تكن تعرف هذه الأرقام ، وإنما تعلمتها عن العرب ، عرفها **جيربرت** Gerbert (٩٣٠ – ١٠٠٣ م) فى الأندلس حيث تلقَّى دراساته العالية ، وأشاعها بنفوذه حين أصبح بابا الكاثوليك تحت اسم **سلفستر الثانى** Silvestre II عام ٩٩٩ م . ويتحدث عنه المؤلفون الغربيون القدامى كمخلّص للعالم المسيحى (الأوربى) من ضنك الأرقام الرومانية ، وحامل معجزة الصفر والنظام العشرى إليها من العرب ، وهو الذى طالع أوربا بأول كتاب من نوعه فى

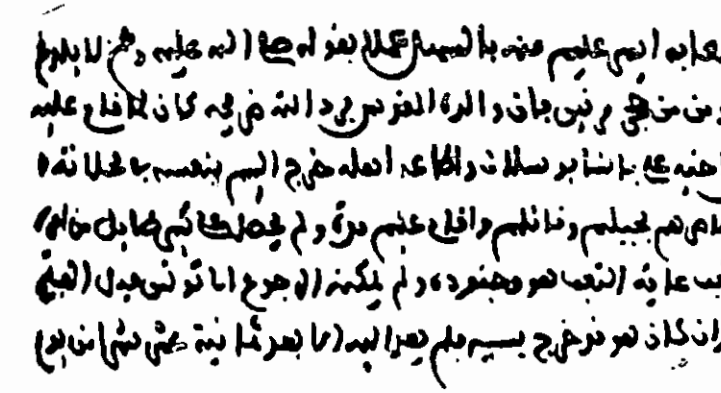

(خط قيرواني : سنغالي)

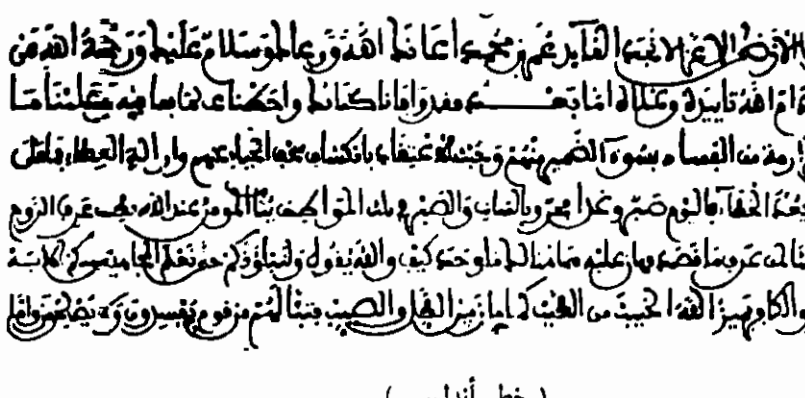

(خط أندلسي)

علم الحسب بالأرقام العربية ، وقد وجد فيها الأوربيون متعة لا تعوض لعظم فائدتها وبساطة تركيبها . وقد تطورت هذه الأرقام فى المشرق بينما احتفظ بها المغرب ، أو طوّرها قليلاً ، وهم يستخدمون هذه الأرقام الآن فيما يكتبون أو يطبعون ، وسواء أكان الرسم الأصلى هو المستعمل عندهم ، أو مايجرى عليه العمل عندنا فى المشرق ، فمن الخير توحيده بين جناحى العالم العربى . وفى عالم متشابك ، يزداد كل يوم قرباً ، فإن الرسم المغربى للأرقام ، وهو نفس الرسم اللاتينى ، يبدو أكثر فائدة وأهم نفعاً .

يُستخدم الرسم العربى فى وقتنا الحاضر عند جميع الشعوب الناطقة باللغة العربية ، ماعدا أهل مالطة فلهجتهم ترسم بحروف لاتينية ، وكانت تكتب بحروف عربية فى شكلها الكوفى حتى سنة ١١٧٣ م ، وقد اتخذته أمم أخرى لا تتكلم لعربية لتدوين لغاتها ، كالفرس وسكان مدغشقر وزنجبار ، واللغة الأوردية ، واللغة البربرية فى شمال أفريقية . وكانت تدوّن به اللغة التركية ، قبل أن يثور كمال أتاتورك على ماضى وطنه وتاريخه ، فألغى الرسم العربى عام ١٩٢٥ ، واتخذ عوضاً عنه الرسم اللاتينى . ومع نهاية دولة المسلمين فى الأندلس ، وإكراه المسلمين قسراً على التخلى عن عقيدتهم ولغتهم وتقاليدهم أخذ المسلمون المتنصرون يكتبون لغتهم الإسبانية بحروف عربية ، وخلفوا لنا بعضاً من تراثهم الثقافى بها ، وكان يطلق عليهم الموريسكوس Moriscos وعلى لغتهم العجمية aljamiado . كما أن بعض المؤلفات العربية دونت برسم غير عربى ، فدون عدد قليل منها فى الأندلس بالرسم العبرى ، وعدد آخر فى المشرق بالرسم السريانى . وتبذل جمهورية الصومال الإسلامية جهوداً كبيرة لكتابة اللغة السواحلية التى يتكلمها سكان الصومال ، وسواحل أفريقيا الشرقية ، وهى لغة مكتوبة حتى الآن ، بحروف عربية ، وهى محاولة إذ قدر لها النجاح تفتح الطريق امام الحرف العربى إلى بقية دول القارة الأفريقية .